في وحي الروح[1]

التراب المتكلم أمام التراب الصامت

تُرى أيهما هو الصدقُ في حقيقته، ما نفرحُ به أو ما نحزن له؟ أمَا إن في الحياة مِلحاً وإن في الحياة حُلواً وكلاهما نقيضٌ فليس منهما شيء إلا هو ردٌّ للآخر أو اعتراضٌ فيه أو خلافٌ عليه، ونجدهما اثنين وهما واحدٌ في اثنين، فأنت تُؤتى الحلوَ تُسيغهُ وتستعذبهُ فاذا هو بك في المِلح تمجّهُ وتنغصُ به، ثم لا تضعُ من أمرٍ على أحسنه في صورةٍ الا رأيتهُ على أقبحه في صورة اخرى، والانسان من الهمّ في عُمرِ دهرٍ لا يموت ومن السرور في عمر لحظة تشبُّ وتهرمُ وتموتُ في ساعات، والحيُّ كأنهُ من هذه الدنيا فرخٌ في بيضةٍ مُلتثٍ لهُ وختمت عليه فلن يزيد فيها غيرُ خالقها وخالقُها لن يزيد فيها، ومن الصحة والمرض، ومما قد استبانت فيه الحيوانية ومما سرّ وساء، وما شدّ وهدّ، ومن العقل العجيب الذي يحكم من الانسان تركيباً عصبيّاً مجنوناً ثائراً — من كل ذلك وما اليه مزيجٌ هو بقدرة الله أشبهُ ولكنهُ فوق ضعفنا وحيلتِنا فلن نرى منهُ في الكون الا شكلَ الحيرة ومعناها والعذابَ بها والفرحَ بالغفلة عنها والسرورَ بإنكارها أو المكابرة فيها، والحيرة لا نفيٌ ولا إثبات، ومتى يطلب الانسانُ الحقيقة وهو جزء منها لم يقف الا على جزء منها، فالمشكلة متحركة الى كل جهة حتى لا تذهب عنها لتنساها الا وانت ذاهبٌ بها لكيلا تنساها

أما إن في الحياة ملحاً وان في الحياة حلواً وكلاهما نقيض، فالصريحُ أن يُخلق منهما المستحيل وهو الملح الحلو . . . . . فان لم يمكن فالممكنُ من الحقيقة للإنسان ان يستحيل الانسان فيموت

٭٭٭

تُرى أيهما الذي هو الكذبُ في نفسه، الموتُ أم الحياة؟ إنهُ الجنين فالوليدُ ثم الميتُ لا محالة بعد ان يُسرع الأجلُ أو يتراخى. لا يتقارُّ جنينٌ في ذاته

---

(١) روح اخي كامل بك الرافعي وقد انتقل الى ربه في شهر يونيو من سنة ١٩٢٨، رحمه الله

الدموية من الاحشاء ، ولا ينبت وليدٌ في ذاته الحية من المهد ، ولا يُدرك شابٌّ في ذاته العظمية للحياة ، ولا يقف شيخ في ذاته الجلدية دون القبر

من عُقدة الثمرة الى لُبِّها الى شحمتها الى قشرتها ، على ناموس القضاء والقدر في باب الحَتْمِ المقضيِّ من كتاب السماء ، وعلى ناموس النشوء والارتقاء في باب الهذيان العلمي من كتاب الارض .....

وكما تكون تحت الوسائد كنوزُ أحلام الليل، تكون في هذه الحياة أحلامُ الكنوز الخالدة التي ملأ الارضَ كلها ضوءُ لؤلؤةٍ واحدةٍ منها

تطلع الشمس تلمعُ على الناس كأنها فصٌّ خاتَمِ السماء تُشير به أن تعالَوْا الى الكنز في ضوء هذه الياقوتة الصغيرة

***

الحواس زائفةمتراجمة مقلوبة وهذا هو نظامُها ونَسقُها واستواؤُها، فليس من أحدٍ في هذا الكون الموجود الا وهو ناظر الى كونٍ غير موجود . السماء سموات والارض أرَضُون والأكوان عِدادَ العقول ، وكل أمل في رأس مخلوق يزيد عنده الدنيا أو ينقصها ويغيِّر من الخليقة ويبدِّل ، وكل انسان في كل يوم هو انسان يومه ذلك فكأن كل حي من كل حي غلطة . وآمالنا كأرقام الساعة هي إثنا عشر رقماً محدودة ولكنها في كل دقيقة هي اثنا عشر رقماً فلن تنتهي

والحياة خداع وغرور ، وزيغ وخطأ ، وعمل وعَبَث ، ولهو ولعب ، ومهزلة وسخرية ، والناس كالارقام تُخط على هذا التراب ثم يقال للعاصفة : اجمعي واطرحي وحلّي المسألة .....

***

واين كل ماصبَّتْهُ الشمسُ والكواكبُ من نيرانها ، وما اخرجتهُ نصولُ الأرض من وشيها وألوانها ،وما هتفت به الطير من أغاريدها والحانها ،وما تلاطمتْ به الدنيا من أمواج انسانها . أين ما صحّ وما فسد ، وما صدق او كذب ، وما ضرّ أو نفع ، وما علا أو نزل ؟ في كل لحظة تمتلئ هذه الدنيا لتفرغ ثم تفرغ لتمتلئ ، وماضيها ومستقبلها مطرقتان عرَّ بينهما كل موجود لتحطيمه . وكأن الحياة ليست أكثر من تجربة الحياة زمناً يقصر أو يطول، وما العجيبُ أن لا تفلح التجربةُ في احد ولكن العجيب

أن لا تنقطع وهي لا تنلح ، والعالم كالبحر من السّراب يموج به أديمُ الارض ثم لا تملأ امواجهُ ملتفة ، والحقيقة في كل شيء لا تزال تفرُّ من تحليل الى تركيب ومن تركيب الى تحليل ، لان شعور اهل الزمن بالزمن لا يحتمل المعنى الخالد ، ولعل سببَ الموت انك لا تجد انساناً يبقى في حقيقته الانسانية فلا هذه الحقيقة يُسّرت له كاملةً ولا هو خُلق لها كاملاً ، وفي الانسان كالطبيعة أرضٌ وسماء قرابةٌ لا يتشابه عما فوقهُ غيرُ الظل ، وقد خُلق مقسوماً ؛ فشُقَّةٌ منهُ في ارضهِ وشُقَّةٌ في سمائهِ فاذا حضرهُ الموت ضرب الضربة بين هاتين فأخذت السماء السماء وجذبت الأرضُ الارض

هناك البرقُ الالهي ملءُ الكون يلتمع ويخطف ولكنهُ من الانسان كشمعة توهّج في غرفة ارضُها وسقفها وحيطانها من المرايا وليس في هذه الغرفة الا هذا الضوء ورجلٌ أعمى . فلا سخرية ولا ضلالة ولا عبث ولا خداع الا في اسلوبنا الانساني المبني على حواسنا الزائفة كما تنود(١) السفينةُ خفّت على موج البحر وما عَبِثَ البحرُ بها ولكن يعبث بها وزنها

***

يريد الله أن نخلق لا نقصنا معنى من السمع والبصر ليس في أذُن ولا عين وأن نريد في مجموعة أعصابنا الواهنة عصباً عقليًّا يراهُ ويسمعهُ ويدركهُ ويؤمن به ، فالايمان قوة جبّارة لا تجتمع الا من ردّ كل أطراف النفس المنتشرة (٢) الى عقدتها الروحية وجمعها اكثرَ حواسها في حس واحد عنيف مؤلم ، ووضع المتاع المضنون بها في ذلك المعنى المفتوح المتهدّم الذي لا يمسك شيئاً وهو الزهد ، وحصر الآلام الطاحنة في ذلك المعنى المطبق المتحجر الذي لا يُفلت شيئاً وهو الصبر ، وردّ الاخلاق كلها الى ذلك العنصر الذي يضيف معنى الحديد الى معنى اللحم والدم وهو الارادة ، وبعد ذلك كله وضع كل شيء انساني في ضوء من اضواء الكلمة المتألهة المسماة بالفضيلة . يا الهي ما أقواك وما اضعفنا . كأنك تقذفنا من السماء تجهد ان نرتفع اليها بأقسنا على أجنحة الاعمال التي تطير بجاذبية مما تحب

لما خلقتَ الانسانَ عبداً على قدرك صار إلهاً على قدره ، فيجب في الحق أن تعذبهُ السماء اذا وغلَ عليها طفيليًّا بلا عمل ولا ثمن

(١) تنود تمايل وتتحرك (٢) أطراف النفس كناية عن شهواتها

النخلة السحوق نواةٌ مخزونة في بلحة ، والعالمُ العظيم تركيب مخبوء في انسان ؛ فالانسان تكده الطبيعي محيط بنواميس قاهرة تحركهُ ، ومحيط به نواميس اخرى قاهرة تحرك معهُ ، فمن ثمَّ لا يبرح يصطدم ولن يكون متجهاً أبداً الا الى التحطيم . فاذا هو تورَّع وتحرَّج أمات من شهواته فأبطل بعضَ نواميسه الداخلة فيه فأبطل مثلَ ذلك فيما حولهُ فكان خروجُه من بعض الدنيا هو حقيقة وجوده في بعض الدنيا . ومثل هذا حقيق ان يقول : إني أحكم العالم من داخلي

***

تباركتَ ربنَا وتعاليت. ان الشك فيك هو اليقين على طريقة والايمان بك هو اليقين على طريقة اخرى . المُقعدُ لا يمشي والاعرج لا يعدو والضعيف لا يسبق العدَّاء ، فاذا انكر المقعد على من يراهُ يمشي ، والاعرج على من يُبصره يَعدو ، والضعيف على من يعرفهُ قد سبق ، فما ذلك من إنكار العين ولا من مكابرة النفس وانما ذاك رأيٌ منظورٌ فيه الى حظ رجْلٍ مهملة او قدم مكسورة أو عظم واهن . ومن ثمَّ لن يكون في الناس ملحد الا وفي طباعه أو أخلاقه او حوادث دنياه جهةٌ مريضة يتكسر عندها الرأي ويُبتلى بها الحس فهي توجّههُ وتصرّفهُ منظوراً فيه الى شعور بعينه . وقد ينتحر الرجل من إعراض امرأة : فهذا يقول إن النفس الانسانية في وزن قبلة ؟

فأما الملحد بغير علة فهذا لا يوجدهُ أبٌ ولا تضعهُ أمٌ اذ يجب ان تكون طباعه لهُ وحده وميراثه منهُ وحده حتى يصدّق زعْمهُ انهُ أخذ للبرهان وحده . فما يجحد الجاحد الا ليجعل نفسه في الرفاهية من الامر والنهي ويخرج بها من حكم الضرورة ، والايمان كله ضرورات سلْطة الحكم على ما بين المؤمن ونفسه وما بين المؤمن والناس وما بين المؤمن وربه حتى كأن فيه شيئاً يَلذَعُهُ بالجمر فما يستريح من لذعة الا قدر ما يجمُّ ليحتمل اللذعة بعدها

يا الهي : انما يحبك المؤمنون ويكابدون في رضاك على مقدار منك لا منهم . فأنت تقذف قلب المؤمن بضرورات كثقَل الراكين وتضرب روحه من مصائبه بسلسلة جبال مفتولة وتتركهُ في الارض يشعر كأنما خرّ عليه سقفُ العالم

شُبَهٌ خلفها بصائرُها ، وظلمات تنتهي بعد حين الى مدّ النهار الاكبر(١) ، ومن

---

(١) اي أعظم ضوئه

الضرورات والمصائب والآلام يخلق الجوّ الحسّاس الذي يبسط فيه الانسان جناحي روحهِ ويسمو بها عن التراب والمادة.

الجوّ الجوّ، هذه تغريدة البلبل في قفصهِ

الغذاء الغذاء .... وهذه قوقأة الدجاجة في قنصها

***

أيقيسُ الانسان نفسه على قياسٍ من الطبيعة في قوتها المتراكبة، ومظهرها المسخَّر لكل ما يتفق، وتركيبها المبني على سهولة الاحتمال، ونظامها الميسَّر لعدم المبالاة؟ ألا ما أحمق الزهرة التي علمت أن الدوحة لا تقتلعها الا العاصفة العاتية فقالت: الآن أهزأ بالنسيم، ثم لمسها النسيم فرمى بها ورقة ورقة

كأن الشكل الانساني نقصٌ انساني؛ وكأن الانسان لم يجيء الى الدنيا بأكمله، وكأنهُ ما خلق منهُ الا قدرٌ ما لغرضٍ ما. كأنهُ ركّب في يد الصانع الاعظم ألقى منهُ جزءاً في مرجل الفلك الارضي ليغلي قليلاً ... ثم يتطاير ويجتمع فيتلقاه من بعد

كأنّ هذا الانسان تحت هذه الضغطة في هذه الفَوْرة في هذا الفلك مادةٌ تُطعم جوّاً لتتحول وتتحول ليس غير. ألا ما أحمقهُ وهو في المرجل على الوقدة الحامية اذا أبى ان يغلي .... وما أسخفهُ وهو في المِصفاة تحت الضغطة الثقيلة اذا أبى ان يُعصر.... وما أجهلهُ وهو في الحياة الفانية اذا نسي إنهُ سيموت!

لا تعرّي ايتها الحبة الصغيرة المختبئةُ في كُدْسَةٍ من القمح تتحدَّر في ثُقب الرحى، ولا تحسبي أنك من لهوٍ ولعب تبعثين هناك وهنا بين الحَبّ. إنك في رفق ولكنهُ رِفْقُ الحجرين الآكلين اللذين لا يدعان شيئاً ولا يفنيان شيئاً وانما يرفقان بك قليلاً قليلاً ليُجيدا طحنك كثيراً كثيراً

***

فتحنا القبر وضرحْنا الميت العزيز؛ لم أقل إنهُ مات بل قلت أن موته قد مات؛ كأن الحي على هذه الارض هو القبر الانساني لا الجسم الانساني فانك لتجد قبوراً من الف سنة ولا تجد انساناً في بعض عمرها؛ أما ترى هموم الدنيا وأحزانها كيف لا يخلو منها أحد وكيف تخرج من النعيم كما تخرج من البؤس؟ ما أحسبها الاَّ صُوَراً من ظلمة القبر يجيء القبر فيها حيناً بعد حين الى ميتهِ الذي لم يمت

من يهرب من شيء تركه وراءه الا القبر فما يهرب أحد منه الا وجده أمامه . هو أبداً ينتظر غير متململ وأنت أبداً متقدم اليه غير متراجع . وليس في السماء عنوان لما لا يتغير الا اسم الله ، وليس في الارض عنوان لما لا يتغير الا اسم القبر

وأينما يذهب الانسان تلقه أسئلة كثيرة : ما اسمك ما صناعتك كم عمرك كيف حالك ماذا عملك ما مذهبك ما دينك ما رأيك ؟ . ثم يبطل هذا كله عند القبر كما تبطل اللغات البشرية كلها في الفم الأخرس ، وهناك يتحرك اللسان الأزلي بسؤال واحد للانسان : ما أعمالك ؟

أيها المتقاتلون على الدنيا والانسان الى حين ! ان تنازع البقاء مذهب فلسفي بقري لا انساني ..... فانما الثيران هي التي تجد من القوة أن تنتطح في المجزرة وتنسى ما هي في المجزرة

***

فتحنا القبر وأنزلنا الميت العزيز الذي شفي من مرض الحياة ، ووقفت هناك بل وقف التراب المتكلم يعقل عن التراب الصامت ويعرف منه ان العمر على ما يمتد محدود بلحظة ، وان القوة على ما تبلغ محدودة بخمود ؛ وان الغايات على ما تتسع محدودة بانقطاع ، وحتى القارات الخمس محدودة بقبر ..... يا عجباً ! القبور مأهولة على الدنيا وليس فيها أحد . أية ذرة من التراب هي التي كانت نعمة ورغداً وأيتها كانت بؤساً وشقاء وأيتها التي كانت حباً ورحمة وأيتها كانت بغضاً وموجدة ؟

سألت القبر أين المال والمتاع واين الجمال والسحر واين الصحة والقوة واين المرض والضعف واين القدرة والجبروت واين الخنوع والذلة ؟ . قال كل هذه صور فكرية لا تجيء الى هنا لانها لا تؤخذ من هنا . فلو أنهم اخذوا هدوء القبر لدنياهم وسلامة لنزاعهم وسكونه لتعبهم لسخروا الموت فيما سخروه من نواميس الكون

ان هؤلاء الاحياء يحملون في ذواتهم معانيهم الميتة وكان يجب أن تدفن وتطهر أنفسهم منها فمعنى ما في الانسانية من شر هو معنى ما في الناس من تعفن الطباع والاخلاق

يكذب أحدهم على أخيه فيعطيه جيفة حقيقة ميتة ، ويكيد بعضهم لبعض فيتطاعمون من جيف الحوادث المسمومة ، ويمكر الخائن فاذا جيفة عمل صالح قد مات ؛ فكل مضغة

تبتلعها من حق أخيك الحي هي كمضغة تقتلعها من لحمه وهو ميت لا تعطيك الا جيفة ثم انت من بعدُ لست بها انساناً ولكنك وحش . . . . بل وحش دنيٌّ ليست له فضيلة الوحشية التي من قوةٍ تأبى أن تمسَّ لحوم الموتى

***

واهًا لك أيها القبر . لاتزال تقول لكل انسان تعالَ . ولا تبرح كل الطرق تُفضي اليك فلا يُقطَع بأحد دونك ولا يرجع من طريق راجع . وعندك وحدك المساواة فما أنزلوا قط فيك ملكاً عظامهُ من ذهب ولا بطلاً عضلاتهُ من حديد ولا أميراً جلدهُ من ديباج ولا وزيراً وجهه من حجر ولا غنياً جوفهُ خزانة ولا فقيراً عُلِّقت في أحشائه مخلاة

ألا ويحك أيها القبر لِمَ لا تأتي الا في الآخر ؟ ولم لا تضع حدودَ معانيك بين الاحياء بعضهم من بعض حتى يقوم بين الضعف والقوة حدُّ العاقبة ، وبين الظلم والعدل حدُّ الحساب ، وبين الغنى والفقر حدُّ الموعظة ، وبين الكبرياء والذل حدُّ المساواة ، وبين النفوس والشهوات حدُّ التقوى ، وبين الحرام والحلال حدُّ الله

يا شقاء اهل الارض ، أما إنهم لو رُضوا فيها موضعاً من النهاية لما كان الابهامُ في السريرة ولا كانت النقلة في النفس ولا كان النسيانُ في الطبع ، ولولا هذه الثلاثُ في هذه الثلاثة لما كان المجهولُ البشريُّ كله في شيء واحد وهو القبر

***

ان أحزاننا وهمومنا ودموعنا هي كل المحاولة الانسانية العاجزة التي نحاول بها ان نكون في ساعة من الساعات مع أمواتنا الاعزاء . ثم يأخذوننا اليهم اختلاجاً وانتزاعاً في هذه الاحزان والهموم والدموع ، فكأنها أمكنة تخلق من الاثير الروحي وتتجسم من سانها كي تصلح أن يلتقي فيها روح الحي وهو حيٌّ بروح الميت وهو ميت ، كما يتلاقى روحا الحبيبين في قبلتهما أولَ مرة اذ يخلُقُ قلباهما لهذا اللقاء جوًّا اثيريًّا من الزفرات واللوعات بين الشفاه المتلامسة

او لعلَّ الموت كما يجرد الحيَّ من روحه ينتزع من أهله شهواتِ ارواحهم فيميتهم مدة من الزمن في القلب وفي العين وفي الفكر . وبذلك يردُّ جميع المحزونين الى المساواة فأهلُ كلِّ ميت وإن علا كأهل كل ميت وإن نزل . وتموت بالموت الفروقُ الانسانية

في المال والجاه والقوة والجمال ، حتى لا يبقى الا السمعة واللوعة والحسرة والزفرة وهذه هي أملاك الانسانية المنكية

يا لهم من يحس ويعرف ويرى كيف يموت العزيز عليه وكيف يتحول من محبه الى ذكرى . ان ما يعمل في القبر يعمل قريب منه في القلب

***

وما يعرف الحي ان الذاكرة فيه هي حاسة اللانهاية (١) الا حين يموت له الميت العزيز فلا يكون في الدنيا وهو في ذاكرته بمعانيه وصورته لا يبرحها

وليس ينزل الحي من امواته في القبر الا من يقول له اني منتظرك الى ميعاد . أما لو عقلها الاحياء لعرفوا ان الموت هو وحده ناموس ارتقاء الروح ما بقيت في الدنيا ، ولكن ضجيج الشهوات — على انه لا يعلو رنة كأس ولا يغطي همسة دينار ولا يخفي ضحكة امرأة — يطمس على الكلمة الازلية التي فيها كل قوة الصدق وكل صراحة الحقيقة فاذا هي خافتة لا تكاد تسمع ملتوية لا تكاد تثبت غامضة لا تكاد تبين

أذلك سحر الحياة فينا ، أم سوء استعدادنا لها ، أم شراهة الجسم من لذة الحياة لابتلاع كل ما في الكون منها ، ام حماقة الكأس التي تريد ان تغترف البحر لتكون له شاطئين من الزجاج ، ام بلاهة الانسان الذي يريد ان يطوي فيه معنى الخالق ليكون اله نفسه

ويحه من غريق أحمق يرى الشاطيء على بعد منه فيتمكث في اللجة مرتقباً ان يسبح الشاطيء اليه . . . . ويثبت الشاطيء ويدع الاحمق تذوب ملحة روحه في الماء

إسبح ويحك وانج فان روح الارض في ذراعيك وكل ضربة منهما تمحو ذرة من هذا الشاطيء . كذلك ساحل الخلد يريد من الانسان الذي هو انسان ان يبلغ اليه مجاهداً لا مستريحاً ، عاملاً لا وادعاً ، يلهث تعباً لا ضحكاً ، ويشرق باتفاسه لا بكاسه ، وينضح من عرق جهاده لا من عطر لذاته

ان روح النعيم الارضي في ذراعي الغريق المجاهد لينجو ، وروح النعيم الازلي في ذراعي الحي المجاهد ليفوز

مصطفى صادق الرافعي

(١) هذا رأي لنا فالذاكرة عندنا من الادلة على خلود الروح